أ.د. طارق أحمد شمس

واقع المعرفة والتنمية الانسانية

من خلال

التاريخ وتحديات العولمة

بين التفاعل والمواجهة

مقدمــة:

بدأت العولمة منذ أوائل التسعينات من قرننا هذا، بهدف رفع الحواجز والقيود أمام الشركات الكبرى، وفتح المجال أمام السلع والبضائع كي تنتقل عبر الحدود وبسيولة.

إلا أن أثر هذه العولمة لم يبق ضمن الحدود الاقتصادية بل امتد ليطرق أبواب المجتمعات كافة ومن خلال السياسة والثقافة، وكان الإعلام ولا يزال هو سلاحها في السيطرة على العقول واختراق الجدران العازلة للخصوصيات داخل الأديان والطوائف والملل والقوميات....

وبالتالي لم يعد هنالك من رادع يقف أو يتحدّى ويتمكن من إيقاف سلاسة العولمة وقدراتها الهائلة ... وبدأت هياكل الثقافات داخل المجتمعات، تتغير وتتبدل لتأخذ أشكالاً جديدة في اللون والطعم، وإن كان هذا التغيير يظهر ببطئ بداية، إلا أنه وبعد عدة عقود قد لا يبقى من جذور هذه الهياكل سوى القليل من بضعة أحجار متساقطة من معبد قديم، فقد شكله وزخرفته وأخذت الأعشاب تنبتُ من بين جنبيه لتغطيه بالكامل .

ومن أبرز المؤثرات التي تغير الحضارة وأنماطها الفكرية وتتشكل منها هذه الحضارة، هي الثقافة... والتاريخ هو جزء من هذه الثقافة...

فكما أن هناك غزواً ثقافياً ، فإننا سنجد غزواً للتاريخ، ليس مجرد تاريخ كتبه أحد أتباع السلاطين بل تاريخ كتبه مؤرخ عن شعب بأكمله، وعن تضحيات لأمم بنت مستقبلها على اكتاف أبنائها ودمائهم... هو تاريخ ممتد في الجذور يثمر شجرة سنديان عالية في السماء تلتمس الغيوم...

وإذا أمكننا أن نشبّه العولمة الثقافية الحالية بكائن، فهي تلك الحشرة التي استوطنت هذه السنديانة وأخذت تفتك بجذورها.

لا أظن أن هنالك خوفاً على جذور تاريخ عريق أُمته تنبض بالحياة وتدرك قيمة أصولها، إنما الخوف هو على أمة لها جذور تاريخية عريقة لا تتأسف على ماضيها، بقدر ما تنتقضه، ليس بهدف الاصلاح بل لمجرد الانتفاض والضجر الدائم من الماضي الذي تعتقد أنه أورثها الجهل والتخلف ... و كيف لمتخلف أن ينتقض الماضي؟!.

في هذا الواقع المحزن المبكي، أين هو التاريخ والتأريخ، وأين المؤرخ وكيف يتعامل أو سيتعامل مع كل ما يحيط به من فوضى " خلاّقة " أم " غير خلاّقة " ومن " شرق أوسط جديد"؟ ... و هل لا يزال هناك مؤرخ اليوم، أم مجرد كاتب صحفي متوهم في السياسة!! ..

لا يمكننا أن ننكر بأن واقعنا الثقافي في أزمة حيث ان الثقافة هي الواجهة المعرّضة لرياح التغيير التي تفرضها العولمة ، وذلك أمام:

1- قوة الثقافات الغربية المدعومة بالإعلام العالمي.
2- سيولة الأفكار والإيديولوجيات.
3- الانتشار السريع للعولمة (سمعية – بصرية).
4- الثقافة الغربية الأميركية التي تتوجه إلى العامة، وعلى شكل مستوى هذه العامة (ثقافة دونية) : ثقافة مايكل جاكسون – ماكدونالدز – الجينز – شكيرا...
5- ولادة القوة الناعمة ، التي تهدف إلى السيطرة على النخبة ونخبة النخبة.
6- ضعف الأنظمة الحاكمة في عالمنا العربي، كونها ترتكز على قوة الجيش لا قوة الفكر....
7- الأجيال الشابة التي وجدت نفسها داخل إعصار العولمة ولم تمتد اليها يد المساعدة لكي تعيدها إلى جذورها وأصولها الثقافية، بعد أن تشوهت هذه الجذور تحت ضربات عصور من التخلف والاستبداد والقهر والفقر.

أمام هذه المتغيرات السريعة، من المتوقع أن يصل تأثير العولمة إلى التاريخ العربي ويغيّر من هويته ، وذلك :

1- بهدف فرض تاريخ كوني يلغي الهوية و الخصوصية للأمة.
2- غزو العقول وتسطيحها.

والعولمة بذلك تستفيد من الفراغ الثقافي في عالمنا، ومن الاحباط الذي أصاب المجتمعات العربية، التي أخذت تتشاءم من المستقبل، وتخشى من واقعها وماضيها القريب، وتلغى بعض ماضيها البعيد الذي أوصلها إلى واقعها اليوم...

هذا كله يترافق مع ما يروج له منظري العولمة من الرأسمالية الجديدة، على فرض الشلل الفكري ومنع أي اجتهاد يصدر من عالمنا.

وأخطر من ذلك، تدمير الإرث الثقافي والعمل على محوه بالكامل، من خلال حروب عبثية لا تُعرف نهايتها .

فأين هو المؤرخ العربي من كل هذا؟!:

1- هو في سبات كما الأمة ؟
2- هل المؤرخ العربي يستوطن بلاط الحاكم؟
3- أم هو في مركز للمخابرات يُستجوب؟
4- أم تراه يقف خلف نافذة داخل غرفة سجن صغير؟
5- وقد يكون واقفاً أمام برج إيفل ! أو ساعة بيج بن ! أو تمثال الحرية في نيويورك ! يبحث عن ما يربطه بأهرامات مصر التي مات ساكنيها وبانيها!. وبرج بابل الذي تهدّم منذ زمن! وبقايا تدمر التي نهبت وبيعت في اسواق النخاسة! وأديرة تاريخية أصبحت أثراً بعد عين !. أين المؤرخ العربي من التدمير الممنهج لحضارة المشرق؟!

أ- تعريف العولمة وتاريخها:

تعتبر نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، مرحلة تاريخية مهمة للإنسانية جمعاء، حيث شهدت هذه المرحلة تطوراً فكرياً واقتصادياً سريعاً، جاء جرّاء سلسلة من التطورات السريعة التي عرفها العالم الغربي مع عصر النهضة الأوروبي، واكتشاف القارة الأميركية، وولادة الولايات المتحدة الأميركية .

وأبرز ما عرفته هذه المرحلة كان ولادة الطبقة البرجوازية التي حلّت مكان النظام الإقطاعي الذي سيطر على اوروبا طيلة العصور الوسطى، كما ونهاية النظام السياسي الملكي من جهة أخرى. ليظهر في العالم الغربي طبقة حاكمة جديدة تتألف من كبار التجار أخذت تسيطر شيئاً فشيئاً على النظام السياسي، وترافق ذلك مع تراجع السلطة الدينية بشكل حاد.

هذه الطبقة من رجال الأعمال أوجدت ما عرف بإسم " الشركات الكبرى " أو " الشركات العابرة للقارات " التي ستصبح المحرك الرئيسي للإقتصاديات والمسيطر على الأسواق، و المؤثر على السياسة في نفس الوقت(شمس وعبد الرحمن، 2015، ص11).

ومع الحربين العالميتين الأولى والثانية، والتي كان من نتائجهما على صعيد العالم تحطيم الاستعمار الأوروبي، وتقزيم نفوذ بريطانيا وفرنسا تحديداً، مما أفسح المجال أمام الولايات المتحدة الأميركية لتصعد وبقوة على مسرح الأحداث في العالم وتتفرّد على رأس الرأسمالية ، مقابل الاشتراكية التي كان يقودها الاتحاد

السوفياتي. لندخل في شكل من اشكال الصراع عرف بالحرب الباردة، إلا أن سقوط الاتحاد السوفياتي وأسواقه الاشتراكية التي كانت تزاحم الولايات المتحدة على عرش العالم ، وذلك في العام 1989، أطلق يد الولايات المتحدة الأميركية التي تفرّدت بالهيمنة على السياسة والاقتصاد العالمي، فأطلقت ما سمي بالنظام الدولي الجديد، وهو نظام المعرفة والقدرة والتنكولوجيا الحديثة، التي تقف خلفها وتحركها النخبة من العلماء ورجال الأعمال ، وتتربع على أعلى قمته أهداف إقتصادية وإيديولوجية هدفها السيطرة على أسواق العالم.

وفي ظل هذا النظام الأحادي ظهر عالمان لا يتشابهان الأول هو عالم الشمال مع ما يملك من تكنولوجيا وقدرات اقتصادية، وعالم الجنوب الذي أطلق عليه ألقاب : كالعالم الثالث والعالم الثاني أو المتشظي(ص 12) ، احدهما يمثل التطور والتقدم والرقي، والآخر يحمل مفاهيم وقيماً من الماضي والتراث وهو ما يعبّر عنه الكاتب اللبناني سيّار الجميل بايدولوجيا القارب (الانتقال) والشجرة (الجذور) (جريدة السفير، 1997/4/30).

هذا العالم الذي يطلق عليه اسم عالم الشمال الذي تقوده الولايات المتحدة الأميركية، أخذ يكتسح الكرة الأرضية بكاملها، بالمعرفة والاقتصاد وبالسلع ذات الجودة العالية، واستطاع عالم الشمال من فرض نفسه والسيطرة على اطراف الكرة الأرضية وهو ما دفع بالعلماء إلى إطلاق تعريف" العولمة " أو " الكونية " أو " القرية الكونية " أو ما يمكن أن نطلق عليه " بالهيمنة " والتي تجاوزت الحدود الجغرافية والزمنية، واخترقت الإيديولوجيات والثقافات ليصبح العالم " قرية " مترابطة فيما بين سكانها عبر التكنولوجيا المتطورة.

هذه القرية التي لا تعرف الحدود، أخذت الشركات العابرة للقارات تحكمها ، عبر ثقافة واحدة، هي ثقافة الدولة التي تمتلك القدرات المعرفية، وهي الولايات المتحدة الأميركية.

وهذه العولمة التي تعتبر قمة الرأسمالية الليبرالية، لا تؤمن إلا بسياسة السوق و " أممية رأس المال " ، وهي أداة وسلاح لمن يملك التكنولوجيا، والاقتصاد هو الطريق الذي تعبره لتصل عبره إلى كافة أنحاء " القرية الكونية ".

وللعولمة أدواتها ومن أبرز هذه الأدوات هو سلاح " الاعلام " ، الذي أدركت أهميته الشركات العابرة للقارات واستخدمته لأهداف تسويقية في الدرجة الأولى، لذا هاجمت العقول بهدف تطويعها فتحول توجه الأفراد من المحلي إلى العالمي، ورفعت بالمجتمعات العالمية لتصبح مجتمعات استهلاكية، فظهرت أفكار جديدة وقيّم أقرب ما تكون إلى قيم السوق.

هذا ما ساهم في " التمييع الثقافي " أو تقزيم الثقافات المحلية أمام الثقافة الاستهلاكية المعولمة، وهو ما يوضحه الأستاذ الجامعي الدكتور سامي أدهم بقوله : " إن الهدف الرئيسي للعولمة هو السيطرة الكاملة

الشاملة على انشطة الفرد، خصوصاً على فكره واختلافه وذلك لتمرير السلعة المعلّبة وتحقيق الأرباح الخيالية ... وفرض ثقافة ولغة بعينها ليسهل توحيد الناس وتمرير السلع الاستهلاكية"(ادهم، 1988، ص118).

وبالتالي فإن هذه العولمة لن تقف عند حدود السوق بل ستقتحم كافة المجالات لتظهر عولمة الاعلام والاتصالات، وعولمة البيئة، وعولمة الدين، وعولمة الثقافة والتاريخ جزء من الثقافة، وعولمة الأسرة، وعولمة الإرهاب ...الخ ... إنه عالم القرية الكونية الذي يتخطى كل الحدود الجغرافية والزمنية عبر التكنولوجيا التي أوجدت المستثمر الرقمي، والمواطن الرقمي، والوطن الرقمي، والنقد الرقمي عبر شاشة الانترنت(عبد الرحمن وشمس، ص13-14).

ب- تاريخ العولمة:

صحيح ان العولمة ارتبطت بالثورة العلمية وعصر التقنية الحديثة، وبالتالي فإننا ننظر إليها كونها معاصرة، حيث لا تنفصل عنها المؤسسات الدولية والشركات العابرة للقارات والتي لم تكن معروفة من قبل.

إلا ان بعض الباحثين يعتبر وجود " عولمة قديمة " و " عولمة جديدة " ، ويقول في ذلك د. عزبي محمد : " فإذا كانت العولمة حركة تاريخية، تهدف إلى تقارب شعوب ودول العالم فهي ليست جديدة، فالاتجاه الذي يهدف إلى هذا التقارب قديم قِدَم التاريخ ولا يرتبط بالتطورات العالمية والثقافة الحديثة " ومثال على ذلك : " الديانات السماوية التي دعت شعوب العالم إلى التقارب والتكامل ويضاف إلى ما ورد، فإذا كانت العولمة مصاحبة " لبروز التوجه الرأسمالي كنظام اقتصادي عالمي"، فقد ظهر ذلك منذ 300 سنة(عزبي محمد، تحديات العولمة وآثارها على العالم العربي، مجلة اقتصاديات شمال افريقيا ، العدد 6 ، ص19).

لقد بدأت العولمة منذ أن بدأت الحضارات الأولى في التاريخ في الظهور ومن خلال الامبراطوريات العسكرية – السياسية، وديانات العالم (اليهودية – المسيحية – الاسلام- الزرادشتية – البوذية – الكونفوشية... الخ).

فهذه التطورات الكبرى وغيرها" مثّلت قنوات لنشر الأفكار الثقافية والاجتماعية و التفاعل بين النخب ."

وأما السبب في إعاقة سرعة التفاعل بين هذه الحضارات " فكان للمستوى المتدني للتكنولوجيا والبنيات التحتية الفقيرة الموجودة آنذاك"(وروريك موراي، جغرافيات العولمة، ترجمة سعيد نتاف ، مجلة عالم المعرفة، العدد 397 ، ص 95- 96).

1- فكانت العولمة الفينيقية ، التجارية والثقافية، حيث انتشرت المستعمرات الفينيقية في طول البحر المتوسط وعرضه ، ونشرت الحرف الأبجدي(عبد الرحمن، 2015، ص72).

2- العولمة اليونانية، من خلال التفاعل الحضاري بين الغرب والشرق عبر ما عرف " بالهلنستية " ، تلك الثقافة (اليونانية – الشرقية) التي ساهمت في تطور الحضارات البشرية"(يحي، د.ت، ص4-16).

3- العولمة الصينية ، من خلال طريق الحرير ، طريق التجارة العالمي الذي ربط شرق آسيا بالقارة الأوروبية ، مروراً بوسط وغرب آسيا وشمال أفريقيا ، حيث انتشرت سلعة الحرير والملح والبهارات وأنواع العقاقير والمنسوجات (بشير الزهدي ، طريق الحرير وتدمر مدينة القوافل ، الحوليات الأثرية العربية السورية، ندوة دولية حول تدمر على طريق الحرير، المجلد 42، 1996 ، ص 131- 136).

ت- العولمة العربية:

كانت الحضارة العربية في العصور الوسطى حضارة مزدهرة بالعلوم ومن رجالاتها عباقرة العالم حينها، وتحولت اللغة العربية ومنذ القرن الثامن إلى نهاية القرن الحادي عشر للميلاد، لغة لا بدّ منها لمن أراد أن يلم بثقافة عصره، فكانت العولمة العربية حينها، التي سلكت سلوكاً حضارياً دعا على حوار الثقافات واحترمت الخصوصية الثقافية للحضارات الأوروبية والفارسية والهندية واليونانية، محترمة الآخر وفكره، معتمدة على التلاقح والنضج والاكتمال نتيجة للأخذ والعطاء .

وهذا يعود إلى أن الاسلام أساساً هو دعوة إلى العالمية، ومن منطلقات تظهر من خلال القرآن الكريم:

بسم الله الرحمن الرحيم :

- وما ارسلناك إلا رحمة للعالمين (الانبياء، 107)"
- " وما ارسلناك إلا كافة للناس"(سبأ، 28).
- يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم"(الحجرات، 13).

وتظهر العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، نتيجة لانطلاقة المسلمين من شبه الجزيرة العربية ليحطوا الرحال في كل من اسبانيا (711- 1492م) وصقلية (827- 1092 م) ، حيث تحولت هذه المناطق إلى منارات عربية نشرت اشعاعها ليصل إلى الداخل الأوروبي طيلة قرون(حلاق، 2012، ص 9).

وفي هذا تقول المستشرقة الالمانية زيغريد هونكه : " لم يكن هناك أحد ليمنح أوروبا ما قبل القرون الوسطى اي اهتمام ، أو ليمنح الأحداث التي جرت في العالم خلال تلك العصور أية اهمية أيضاً، وأما ان يكون العرب في جوار قريب لها ، وأن يكون هذا الشعب رائداً لغيره من الشعوب في انحاء الدنيا في غضون

سبعماية وخمسين عاماً حاملاً مشعل الثقافة ردحاً جاوز عصر الإغريق الذهبي بضعفيه أكثر من أي شعب آخر... فهذا امر من يعلم به ؟ ومن يتحدث عنه ؟."(هونكة، د.ت، ص12).

وتحولت بعض المدن في كل من الأندلس وصقلية إلى مدارس ترجمت فيها المخطوطات العربية في مختلف العلوم من : الرياضيات وعلم الفلك ، والكيمياء والطب ، والتاريخ ، والجغرافيا ، والفلسفة وعلم النفس، وغيرها ، من خلال طليطلة في الأندلس التي تدفق اليها الطلاب الأوروبيين بعد العام 1085م ، وبالرمو في صقلية في عصري أسرتي النورمان والهوهنشتاوفن الالمانية (حلاق، ص97و 136).

- لقد تأثرت أوروبا ب:

1- الموسيقي العربية والمغني أبو الحسن علي بن نافع، المعروف باسم زرياب (789-857 م) ، فظهر " التروبادور " الذين أنشدوا الأشعار الزجلية الأندلسية في أنحاء أوروبا الغربية (عيد، 1993، ص 78).

2- الأرقام العربية المستوردة من الهند ، والتي انتشرت عبر بلاد الأندلس من خلال غربرت، الذي تعلّم في مدارسها، وأصبح فيما بعد البابا سلفستروس الثاني عام (999م)، لتدخل إلى اوروبا عبر البابا الذي تعلم عند العرب، فنظرت إليه أوروبا كساحر، وفنان غريب، ونسجوا حوله الإشاعات ، فقط لكونه كان يتقن علوماً كانت غريبة عندهم(هونكة، ص 81).

كما دخلت هذه الأرقام من بالرمو، من بلاط الإمبراطور فردريك الثاني عبر ليوناردو البيزي (نفسه).

3- فلسفة ابن رشد، الذي ترجم له ميخائيل سكوتوس الاسكتلندي، من بلاط الإمبراطور فردريك الثاني، وذلك من خلال شروحه لفلسفة أرسطو طاليس، كما ترجم كتاب الحيوان لأبن سينا، هذه الكتب التي " هزت العالمين المسيحي والاسلامي"(ص448).

3- لقد كان عصر فردريك الثاني، امبراطور صقلية ونابولي والمانيا، عصر التنوير الآتي من الشرق نحو أوروبا، ذلك الامبراطور الذي تقول عنه زيغريد هونكه : " وفي خلال حياة فريدريك الثاني التي دامت ستة وخمسين عاماً، باشر النفوذ العربي من مختلف مصادره الثقافية والفكرية تأثيره على دولته، حيث وجد جواً فكرياً مهيئاً لتقبله ورعايته، وإذا كانت أوروبا قد نظرت إلى تلك النهضة القادمة اليها عبر إسبانيا وصقلية نظرة الإعجاب حيناً فإنها نظرت اليها نظرة الشك أحياناً، لكنها على أية حال، لم تقف حينها موقفاً سلبياً خاصة بعد أن قدّم فردريك في دولته نموذجاً لمدى ما يمكن أن تحققه تلك النهضة الجديدة من رفاهية وإزدهار للشعوب"(نفسه).

وفي عصر فردريك:

أ- تبنت الدولة نظم الدولة وقواعد الحكم والإدارة من العرب(ص 443) .

ب- كما اخذت بفن البناء العربي(نفسه).

أ- تبنى نظام العرب في دراسة الطب، ونظام الشرطة".(ص44).

ب- اتخذ الموظفين والمستشارين والقادة من العرب"(ص 434- 435).

هكذا كانت العولمة التي نشرها العرب رفعت من شأن الأمم وحضَّرتهم، وعظّمت من قدرهم، حتى قالت المستشرقة الالمانية زيغريد هونكه: " إن التاريخ لا يهتم بماذا كان يمكن أن يحدث، لو أن هذا قد حدث أو أن ذاك لم يحدث، إن التاريخ أعمق وأدق من ان ينسج في الخيال، فواجبه الأول هو الاهتمام بالحقائق ، فكل موجة علم ومعرفة قدمت لأوروبا في ذلك العصر كان مصدرها البلدان الاسلامية، كما أوجد الاسلام باستيلائه على بلدان البحر الأبيض المتوسط، وضعاً سياسياً جديداً، أدى إلى نقل مركز الثقل في الغرب من البحر المتوسط إلى المانيا فأصبح الراين هو المنظم للسياسة الأوروبية ، وكان ردّ الجرمان غير المباشر على ذلك التوسع الاسلامي هو تكوين الجيوش من الفرسان وتأسيس المنظمات الدينية لفرسانهم والتفكير بالحروب الصليبية ضد فلسطين... وتضيف قائلة : " ولعلّ أكبر دليل على هذا هو أن الغرب بقي في تأخره ثقافياً واقتصادياً طوال الفترة التي عزل فيها نفسه عن الاسلام ولم يواجهه ، ولم يبدأ ازدهار الغرب ونهضته إلا حين بدأ احتكاكه بالعرب سياسياً وعلمياً وتجارياً، واستيقظ الفكر الأوروبي على قدوم العلوم والآداب والفنون العربية من سباته الذي دام قروناً ليصبح أكثر غنىً وجمالاً وأوفر صحة وسعادة..."(ص 541).

ث- تراجع العالم العربي:

في هذه المرحلة التي كانت فيها أوروبا تدخل عصر نهضتها ، كان المشرق العربي يتراجع اقتصادياً وفكرياً بشكل متسارع ، حيث يصور لنا مؤرخو القرنين الخامس عشر والسادس عشر للميلاد أشكال التردي السياسي والاقتصادي التي أصابت العالم العربي، وانعكست بالطبع على الحالة الثقافية والعلمية.

ومن هؤلاء المؤرخين ابن تغري بردي (ت 874هـ/1470 م) في العصر المملوكي، حيث وردت العديد من الروايات التي تظهر واقع الحال في هذه المرحلة من:

1- الغلاء المفرط.
2- انتشار التصوف والدروشة.
3- أعمال السلب والنهب التي مارسها المماليك.
4- إثقال كاهل الناس بالضرائب.
5- محاربة المماليك لكل ما هو اجتهاد في الراي.
6- تدني المستوى الفكري حتى بين الصفوة.

7- تعطل المحاكمات وإهمال العلاقات.

8- إنشغال السلاطين بالتنزه والرياضة.

9- بخست العملة ...الخ (اسحق عبيد، البعد التاريخي لأزمة الفكر العربي المعاصر ، المجلة العربية للعلوم الانسانية ، العدد 52، السنة 13 ، 1995، ص 139).

فعلى سبيل المثال:

ورد عن العام 860هـ/1456م : " نودي بالقاهرة من قبل السلطان بعدم تعرض المماليك الجلبان إلى الناس والتجار والبيعة، فلم يلتفتوا لمناداته، واستمروا على ما هم عليه من اخذ بضائع الناس بأبخس الأثمان، وأفعالهم القبيحة ... فإنه زاد بسبب ذلك أسعار أشياء كثيرة من المأكولات والعلوفات والأغلال ، فإنهم صاروا يخرجون إلى ظاهر القاهرة ويأخذون ما لقوا من الشعير... والتين بأقل ثمن ... ثم شرعوا من نهب حواصل البطيخ وغيره ..."(ابن تغري بردي، تحقيق 1990، ج2 ص 592).

وحتى عندما كانت تتأخر رواتب المماليك ، كانت عامة الناس تعاني من ردات فعلهم وشغبهم : يقول ابن تغري بردي : " فلما تعوقت فيه جوامك المماليك السلطانية ، ولم ينفق لأحد منهم شيء، فعند طلوع الأستادار إلى القلعة تشغبت عليه المماليك السلطانية ، ففاتهم ، فلما دخل إلى السلطان عرَّفه بذلك ، وأظهر العجز عن حمل الجمايكة ، فإستشاط السلطان غيظاً وأمر به في الحال فضرب نحو العشرين عصاة..."(ج2 ص 584).

ولم ينتهِ الأمر عند هذا الحد، حيث ان المماليك السلطانية " نزلوا من وقتهم إلى بيت زين الدين [الأستادار]... لينهبوه، فأغلقت مماليكه الدروب ورموا عليهم ومنعوهم من الدخول... فلما عجز المماليك عن الدخول إلى بيت زين الدين المذكور وحارته نهبو بيوت الناس..."(ج2 ص 586).

وفي حادثة أخرى يروي ابن تغري بردي أيضاً " طلع العبيد موالي أرباب الرواتب لأخذ اللحم، فلم يجدوا الوزير ذبح شيئاً ولا طلع في اليوم المذكور رطلاً من اللحم لجميع المماليك الجلبان والقرانيص، فنزلوا العبيد والغلمان إلى شوارع القاهرة.... وأخذوا عمائم الناس من على رؤوسهم وشدوهم من على أكتافهم ، وأفحشوا غاية الفحش"(ج2 ص 571).

لقد كانت الدولة المملوكية تلعب دوراً رئيساً في التدهور الاقتصادي نتيجة اللامبالاة عن الاهتمام بشؤون العامة والأسواق، فكانت الجسور التي تحفظ مياه نهر النيل تنقطع وتغرق الأراضي وينتج عن ذلك ارتفاع الأسعار وتدهور الأوضاع، بل ووصلت الأمور إلى ان بعض السلاطين كانت تسمح للمماليك من الجلبان بمهاجمة بعض بيوت كبار الموظفين ونهبها لأن رواتبهم لم تدفع لهم، ويتكرر مشهد نهب الأسواق

عند خروج الجيش في الحملات العسكرية، أو عند نشوب الخلافات بين الأمراء، أو حتى عند موت احد السلاطين، حيث يصاب العامة بالفزع فتغلق الأسواق ، وتبدو القاهرة وكأن سكانها من الموتى (عبده، 1998، ص345- 346).

ج- محاولات الإصلاح:

ومع العام 1516م وعلى أثر معركة مرج دابق بين المماليك وعلى رأسهم السلطان قانصوه الغوري(1501 – 1516 م)، والعثمانيين يقودهم السلطان سليم الأول (1512 – 1520م)، والتي انتهت بمقتل السلطان المملوكي ودخول سليم الأول القاهرة في العام التالي 1517 م وإنهاء الحكم المملوكي، خضع العالم العربي للنفوذ العثماني . لم يختلف الأتراك عما سبقهم في حكم بلادنا من المماليك ، حيث ان العقل العربي وطيلة فترة الحكم العثماني التي استمرت زهاء اربعماية عام، استمر في سباته...

وافضل من يعطينا صورة عن الواقع الاجتماعي والثقافي في هذه المرحلة هم مفكرو عصر النهضة من العرب ، فهؤلاء كانوا حالة خاصة ظهرت في اواخر القرن التاسع عشر، نتيجة للتأثر بالحملة الفرنسية التي قادها نابليون بونابرت على مصر عام 1789 م، وحكم محمد علي باشا ومحاولاته الاصلاحية التي سقطت على أثر سقوط مشروعه في قيام خلافة إسلامية يكون هو على رأسها تحل مكان السلطنة العثمانية.

لقد كان محمد علي أول من سعى إلى قيام حركة قومية من خلال محاولاته في نهضة مصر والعالم العربي، حتى أن ولده إبراهيم باشا، حمل القومية العربية معه أثناء دخوله سوريا، وفي ذلك يكتب البارون " لبو " الذي التقاه بالقرب من طرطوس سنة 1833م : " إن إبراهيم باشا يجاهر علناً بانه ينوي إحياء القومية العربية"(عمارة، 1981، ص145).

وقد شجع إبراهيم باشا التعليم عندما كان في بلاد الشام ، كما شجّع على التربية على القومية العربية، كما فتح الباب أمام البعثات التبشيرية التي ساهمت بشكل كبير في المجال التربوي والتثقيفي في المشرق العربي(الحصري، 1985، ص127) .

ومن خلال المعاناة من الهجمة الاستعمارية على العالم العربي، حيث احتلت انجلترا مصر عام 1882، وفرنسا كل من الجزائر وتونس عام 1830، ونتيجة للاضطهاد العثماني، ظهر مجموعة من المفكرين المسلمين والعرب أمثال: جمال الدين الأفغاني، إلى الكواكبي، ونجيب عازوري، ومصطفى كامل، والشيخ محمد عبده، والشيخ أحمد رشيد رضا وآخرين(سعيد عبد الرحمن، النهضة العربية، ظروف النشأة – موقف رجالاتها – أسباب السقوط ، مجلة تاريخ العرب والعالم، العدد 270، تموز وآب 2014 ، ص 84-88) سعوا إلى ترسيخ فكرة التحرر والوحدة وعملوا على وضع مداميك للنهضة العربية الحديثة، إلا ان ذلك كله سقط أمام:

1- ظهور جمعية الاتحاد والترقي وانقلابها على السلطان عبد الحميد الثاني عام 1908 – 1909م.
2- عدم توحد العرب، والانقسامات الداخلية، والنظام الإقطاعي، والنظام القبلي، والتنافس على الحكم.
3- الصراع مع الباشاوات من العثمانيين.
4- الجمود عند الماضي الذهبي العربي.
5- إيمان العرب" أن كل جديد بدعة غير مرغوب فيها تهب عليه من أقطار غير إسلامية"(زين، 1968، ص61).

سعى رجال عصر النهضة إلى الأخذ من كل ما هو حضاري من الغرب وحتى السياسي وترك كل ما هو متخلف في عالمنا، وهو ما ظهر من خلال دعوة الشيخ محمد عبده إلى أن تكون " السلطة للصفوة المستنيرة "(عبده، 1993، ص343).ويكون ذلك عبر تأسيس مدرسة للزعماء(محمد عمارة ، الأفغاني مفكراً ومناضلاً ، مجلة تاريخ العرب والعالم العدد 26، آذار ونيسان 2013 ، ص 59).

وجد الشيخ محمد عبده المجتمع العربي مجتمعاً متخلفاً ثقافياً وعلمياً، فاعتبر أن أفضل أنواع الاصلاح هو " التربية " لذلك دعا إلى إقامة مدرسة تخرّج المصلحين ويكون هدفهم هو غرس التهذيب في قلوب العامة، والتربية والتعليم بعيداً عن السياسة والسياسيين : " إني لأعجب لجعل نبهاء المسلمين وجرائدهم كل همهم في السياسة وإهمالهم أمر التربية الذي هو كل شيء وعليه يبنى كل شيء"(أحمد شامخ، المجددون في الاسلام ، مجلة الهلال، نوفمبر 2013 ، ص 53- 54).

فبعد ان أدهشت الحضارة العربية أوروبا في العصور الوسطى وساهمت في نهضتها، إذا بالعرب وبعد عدة قرون يُصدمون بما يشاهدونه من تطور نقلته الحملة الفرنسية معها إلى مصر عام 1798 م، فنجد الجبرتي في مشاهداته يقول : " وأفردوا مكاناً... لصناعة الحكمة والطب والكيماوي وبنوا فيه تنانير مهندمة وآلات تقاطير عجيبة الوضع وآلات تصاعيد الأرواح وتقاطير المياه وخلاصات المفردات وأملاح الأرصدة المستخرجة من الأعشاب... ومن أغرب ما رأيته..."

كما وينقل الجبرتي مشاهداته التي ادهشت الناس فخافت منها، أمام سخرية العلماء الفرنسيين : " انزعجنا منه فضحكوا منا"(الجبرتي، د.ت، ص235-236).

فبعد أن كان الأوروبيون يعجبون بالعلوم العربية ويندهشون منها ، ويتهمون البابا سلفستروس الثاني الذي تعلم في مدارس الأندلس: بالساحر والفنان الغريب، وينسجون حوله الاشاعات باتصاله بالشيطان، فقط لأنه كان يتقن بعضاً من العلوم الحديثة التي درسها عند العرب(هونكة، ص81). أصبح العرب أنفسهم ، وبعد قرون من التخلف والجهل، يعتقدون العلوم التي اكتشفوها وطورتها أوروبا سحراً يخافون منه.

ح- دور التصوف في نشر التخلف

في هكذا مناخ من التخلف والجهل ظهرت الطرق الصوفية والدروشة التي ترعرعت بين العامة في كل البلاد الاسلامية، من اليسوية إلى النقشبندية والبكتاشية(كوبريلي،2002، ص 186) والكبراوية (ديورانت، د.ت، ج13، ص 349-350) والمولوية والقادرية(الحفني، 2006، ص165) وغيرها... وقد دعت إلى إغلاق العقل وتسليم النفس الانسانية بالكامل إلى شخص يدعى شيخ الطريقة:

" فالمطلوب من المريد تجاه الشيخ هو:

1- الطاعة الظاهرة والباطنة(زيدان، 1991، ص51).
2- الجلوس مع الشيخ على بساط الأدب.
3- إطلاع الشيخ على احواله.
4- عدم اتهام الشيخ بإساءة قلبية.
5- التهيؤ الدائم لخدمة الشيخ (ص52).
6- الصدق في الصحبة لله تعالى.
7- الصبر على خشونة الشيخ (ص53).
8- أن يكون إعتقاده مقصوراً على شيخه معتقداً أنه لا يحصل مطلوبه أو مقصوده الا على يد هذا الشيخ.
9- أن يكون مستسلماً منقاداً راضياً بتصرفات الشيخ يخدمه بالمال والبدن.
10- أن يسلب اختيار نفسه بأختيار الشيخ في جميع الأمور.
11- الفرار من مكاره الشيخ ... وكراهة ما يكره الشيخ (النقشبندي، 2002، ص5).

وإلى آخره من القوانين التي فرضت على المريد والتي تلغي العقل وتمنع المشاعر والأحاسيس، ليتحول هذا المريد إلى مجرد تابع أعمى، او بالأحرى آلة يحركها

" شيخ " ولا ندري كيف يفكر هذا الشيخ.

2- واقع المؤرخ والمثقف العربي اليوم:

من خلال ما مرّ معنا، فإن واقع الفكر العربي اليوم لا يزال يعيش حالة من التبعية والتخلف في عصر العولمة . وهو ما يستتبع حالة من التهميش وهدر للإمكانات الفكرية بشكل كبير(وجدي، 2005، ص101) وإمكانيات الصمود والمواجهة أمام تحديات العولمة تحتاج إلى الإرادة أولاً، وهو ما أورده الفيلسوف محمد عابد الجابري بقوله: " ... إن إمكانيات العالم العربي وقدراته ككل، المادية والفكرية من

جهة، والانفتاح مع القابلية الهائلة للتطور اللذان يطبعان الثقافة العربية من جهة أخرى، يجعلان قضية مستقبل هذه الثقافة قضية إرادة قبل كل شيء: ارادة المثقفين أولاً وبالذات ..."(الجابري، 2006، ص41) ولكن هل تكفي الإرادة وحدها ؟ أم أن هنالك ما يرتبط بها من راحة وأمان نفسي أولاً ومادي ثانياً؟

أ- الحضارة والثقافة عند ابن خلدون وشروطهما:

يذهب العلامة المؤرخ ابن خلدون (1332 – 1406 م) إلى اعتبار أن الحضارة هي اعلى مراحل تطّور الدولة وثقافتها، وهو يقول في تعريفه للحضارة:

- " والحضارة إنما هي تفنن في الترف وإحكام الصنائع"(ابن خلدون، المقدمة، تحقيق 2001، ص216).

وأضاف التعليم إلى الصنائع وربط الصنائع وتطورها بالعلم:

- " أن التعليم للعلم من جملة الصنائع"(ص216) ، وبالتالي فإن " الصنائع لا بُدَّ لها من العلم"(ص501).

ولا يربط ابن خلدون بين الحضارة والصناعة والعلم برابط ضعيف، فجودة العلم تساهم في جودة الصناعة وتساهم بالتالي في تطور الحضارة ورقيّها:

- " على قدر جودة التعليم وملكة المعلم يكون حذق المتعلم في الصناعة وحصوله ملكته"(ص501).

ومن أمهات الصنائع عند ابن خلدون هي الكتابة:

- "... وأما الكتابة وما يتبعها من الوراقة ... مخلّدة نتائج الأفكار والعلوم في الصحف ورافعة رتب الوجود للمعاني..."(ص508-509).

ويعرّف الكتابة ومن جملة ما يورده : "... ويُطلّعُ بها على العلوم والمعارف وصحف الأولين وما كتبوه من علومهم وأخبارهم..."(ص524).

وكمال صنعة الكتابة لا يكون إلا في الفترات التي تكون فيها الدولة في خير وسكانها يعيشون بأمان وراحة: " وإنما أتى هذا من كمال الصنائع ووفورها بكثرة العمران وأنفساح الأعمال "(نفسه).

ويضيف : " وجاءت صناعة الوراقين المعاينين للإنتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكتبية والدواوين واختصت بالأمصار العظيمة العمران..."(ص532).

وبالتالي فإن ابن خلدون اعتبر أن إزدهار الكتابة، أي الثقافة، مرتبط بالعمران البشري عندما يكون في ترف : " وإذا ضعفت أحوال المصر وأخذ في الهرم بإنتقاض عمرانه وقلة ساكنه تناقص فيه الترف ورجعوا إلى الاقتصار على الضروري من احوالهم فتقل الصنائع ..."(ص506).

فالحضارة عند ابن خلدون مرتبطة إذاً بالتقدم المادي والفكري، وهي مرتبطة أيضاً بتطور الدولة وتطور علومها، ولا يكون ذلك إلا في حالات الراحة والأمان والبحبوحة.

كما ان الرابط بين الانسان وتطور الحضارة، هو الثقافة ومدى علو مستواها وتقدُّمها وارتقائها، ومع تراجع هذه الحضارة تنمو غيرها، وهو ما يورده مالك بن بني قائلاً: " فدورة من دورات الحضارة تولد في بعض الظروف النفسية الزمنية، ثم تنمو وتطرد، فإذا ما سبقتها الحضارة الانسانية توقفت تلك الدورة لتبدأ أخرى في ظروف جديدة...فهذا هو القانون الذي خطّ على مر السنين خلال التاريخ ... وبذلك تمتزج غاية التاريخ بغاية الانسان..."(بن نبي، د.ت، ص177-178).

نظرية مالك بن بني هذه اشبه ما تكون بنظرية إبن خلدون القائل: " في ان الدولة لها اعمار طبيعية كما للأشخاص..."(ابن خلدون، ص213).

فهل هذا يعني أن الحضارة العربية دخلت في عصر الأفول ولا رجعة إلى امجاد الماضي؟.

هكذا يظهر معنا ان المثقف هو وليد مجتمع ويتأثر بهذا المجتمع الذي يعيش فيه، وبثقافة يتفاعل معها منذ طفولته، وهو بالتالي يؤثر بهذا المجتمع من خلال إبداعاته ونشاطاته الفكرية.

فالثقافة هي عملية تراكمية، تظهر نتائجها من خلال مستوى الطبقة المثقفة في مكان ما، فإذا لاحظنا أن هذه الطبقة متخلفة ثقافياً، فهذا دليل على الانحطاط العام لمستوى الثقافة والعكس صحيح، والمجتمع الذي تتراكم فيه الانجازات الفكرية المحترمة

– كما لاحظنا من خلال إبن خلدون – هو المجتمع الذي تتوفر فيه الأجواء المساعدة على الابداع الفكري(أحمد سالم الأحمر، المثقف العربي واقعه ودوره ، مجلة دراسات عربية ، العدد 7، السنة 26 أيار 1990 ، ص 3) ، هو المجتمع الديمقراطي الذي يفتح المجال أمام الانتقاد والتغيير، نحو الأفضل طبعاً، وهو نفسه المجتمع الذي تنمو وتظهر فيه الايديولوجيات الفكرية، بغض النظر عن نوعيتها.

وإذا لاحظنا المجتمع العربي اليوم، فإننا نجد انه أسير تياران فكريان متصارعان أحدهما هو الفكر السلفي مقابل الفكر الكوني، حيث الأول الذي يرتكز على الثقافة العربية الاسلامية، يعتبر هذه الثقافة هي المطلق الصالح وحده للإنسانية جمعاء، والآخر الذي يربط هذه الثقافة بالفكر الغربي يذهب إلى تعميمه على كل انحاء العالم.

ليظهر معنا صراع أيديولوجي ثقافي وحضاري بين نحن – والآخر (محمد عابد الجابري ، حول الثقافة العربية ، مجلة المستقبل العربي، العدد 1، 1986 ، ص 148) فما هو الخيار؟

إنه صراع بين فكرين وحضارتين، والثقافة الأقوى هي التي ستفرض نفسها، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى قد ينتج عن هذا الصراع نشوء ثقافة تأخذ من كلا التيارين ، لتولد ثقافة جديدة تساهم إما في نهوض المجتمع أو في إنحطاطه، والمؤرخ هنا هو ابن هذا المكان والزمان...

ب- المؤرخ العربي بين الجمود والتغيير:

يعتبر محمد عابد الجابري إلى ان حضارة العولمة، مع ما يرافقها من تقنية عالية المستوى، لا يمكن مقارنتها مع باقي الحضارات التي مرَّت على الانسانية، فمدى توسعها وانتشارها وهيمنتها، كونها تمتلك مفاتيح التكنولوجيا ستؤدي وبشكل طبيعي إلى تفكيك الخصوصية الثقافية للشعوب وتغييرها(ص42).

وأمام هذه الهجمة من دول كبرى تمتلك قوة التقانة وتستطيع أن تسخرّها في اتجاه تحقيق هيمنتها السياسية والثقافية، يلزمنا قوة في المقابل تحمي خصوصيتنا الثقافية وتمتلك القدرات التقنية والعلمية القادرة على المواجهة.

وهذا معناه أننا: " في حاجة إلى التحديث ، أي إلى الانخراط في عصر العلم والتقانة كفاعلين مساهمين " لنؤمن الحماية الضرورية لهويتنا القومية وخصوصيتنا الثقافية"(ص43).

وهذا لا يتحقق إلا عبر:

1- الخروج من التقاليد الجامدة.

2- استيعاب كل ما هو جديد على مستوى العلم والتقانة بشكل إيجابي وفاعل(ص45).

3- إرادة المثقف بالتطوير مع الحفاظ على الخصوصية.

4- الاستقلالية بعيداً عن هيمنة السلطان وتسلطه(ص46-47) أو الاستزلام إلى طرف حكومي أو غير حكومي.

5- الابتعاد عن وهم الاستعمار الذي لا زال يلاحقنا حتى في احلامنا، ونحمّله إلى اليوم مسؤولية تخلفنا الحضاري.

مع العلم بأن الاستعمار هذا لم يستطع " تدمير الثقافة العربية، حيث أنها لا تزال حيّة إلى اليوم، لغةً وأدباً وديناً وحتى فكراً" (ص87-88).

والسؤال الذي يطرح نفسه: من يتحمّل مسؤولية هذه الثقافة ويدّعي حمايتها هل هو أهلاً لهذه المسؤولية؟.

فالثقافة العربية ، كما يقول الجابري ، ليست مجرد نقوش " أو بقايا أطلال أو مجرد رموز وعادات ورقصات وأغان وأعراف، ليست بقايا ثقافة الماضي، بل هي تمام هذه الثقافة وكليتها : إنها العقيدة والشريعة واللغة

والأدب والعقل والذهنية والحنين والتطلعات ، وبعبارة أخرى إنها في آن واحد: المعرفي والأيديولوجي، وأساسهما العقلي وبطانتهما الوجدانية"(ص88).

- **<u>اين دور المؤرخ من كل ذلك؟</u>**

المؤرخ هو مثقف يتحمل مسؤولية بقاء التراث حيّاً في وجدان شعبه، وهو متهم اليوم:

يقول نقولا زيادة : " نحن نضيع بين تقليد الحجل وتقليد الجمل فلا نتقن مشية الأول ولا نحسن سير الثاني" (زيادة، 2002، ص464).

ويشرح لنا السبب قائلاً:" الجميع يتبعون شعارات حملت من الخارج دون أن يتقنوها، ويستوردون الأبطال من مجتمعات لا تمتُّ لنا بصلة، فنحار ونضطرب، بل ونضيع"(نفسه).

ويضيف : " أهل القلم عندنا في حيرة من امرهم ونحن حائرون معهم، هم مضطربون في شؤونهم، ونحن مضطربون معهم، فهناك من يقف عند القديم وسيفه مسلط على من يفكر بغير هذا الأسلوب، سواء أكان هذا القديم تراثاً حملته إلينا الأجيال فكراً ورأياً وأسلوباً، أو هو شيء لجأنا إليه للتعبير عن آراء لم تتبدل ولم تتغير خلال قرون وقرون".

أما المجموعة الثانية عند نقولا زيادة فهي: " وعندنا من يدعو إلى الحداثة والتحديث، وقد يفرط في ذلك ويلقي بكل ما ذكر قبلاً خلف الظهر، فينبذ القديم فكراً واسلوباً لأنه قديم ، وينقل آراءه من الخارج "(ص466).

إلا انه يحدد عدة نواح، ساهمت في تراجع المؤرخ ومنها التوجه نحو التراث الديني والتركيز على هذه الناحية عند مختلف المؤرخين بشكل عام، ويبرر ذلك بقوله: " أحسب أن أحد الأسباب التي أدت إلى ذلك هو أن حياتنا الفكرية توقفت في تطورها في القرن 15 هـ (11م) ، بسبب القيود التي فرضتها عليها أنظمة الحكم والآراء التي كان عملها تبرير تصرُّف الحكّام ... وبسبب التضييق الذي تعرّض له الفكر في عالم العرب عبر العصور ، أصاب نواحي النشاط العقلي كلها شيء من التوقف" (ص471)

وهذا ما ذهب إليه الفيلسوف محمد عابد الجابري عندما حصر معرفة التراث العربي والاسلامي بطرفين هما: " التقليديون " ، وهم المثقفون المتخرّجون " من جامعات ومعاهد كالأزهر، والقرويين بالمغرب، والزيتونة بتونس، و هم يعتمدون فهماً واحداً هو : فهم التراث للتراث، هذا الفهم الذي يأخذ أقوال الأقدميين كما هي سواء آرائهم الشخصية أو ما نقلوه عن غيرهم، وبالتالي يعتمدون على الاستنساخ والاستسلام" يضيف الجابري: " وهكذا تغيب الروح النقدية وتفقد النظرة التاريخية " (الجابري، 2011، ص26).

أما الطرف الآخر، عند الجابري، فهم " المستشرقون " ومن سار على منوالهم"(ص 28) ، وهذا الطرف الآخر يؤكد التبعية في فهم تاريخنا من الخارج (ص29) ، وبالتالي يحدد الجابري مراجع تاريخنا اليوم ومن يسيطر عليه على الشكل الآتي:

1- الفهم الخارجي لتاريخنا.

2- أو النقل الحرفي من الماضي من دون تمحيص وعقلانية في النقل(ص30).

ويضيف الكاتب أحمد وجدي إلى ما ورد من خلال مؤلفه : " محنة النهضة ولغز التاريخ " : الانطلاق في دراسة التاريخ من الحدث ومن السياسي ومن الزعماتي فقط (وجدي، 2005، ص177).

ويشرح لنا الكاتب محمد الظاهر المنصوري في مقدمة كتاب جاك لوغوف " التاريخ الجديد" ، محنة الكتابة التاريخية في العالم العربي والاسلامي، معتبراً أن أغلب المؤرخين العرب من مغاربة ومشارقة تجنبوا " الخوض في بعض المواضيع التي تبدو حسّاسة، وانتشرت النظرة التقديسية للماضي، مما ادى إلى تحنيطه وجعله غير قابل في بعض الأحيان إلى الانفتاح على المناهج الجديدة".

ويضيف قائلاً:" لماذا ما زلنا نتذكر عصر هارون الرشيد ولماذا لا نتذكر الا صلاح الدين أو غيره ؟ لا لشيء إلا لأنهم مقدسين في تاريخنا ... ونتغافل عن الفترات الحالكة في تاريخنا، ولا نحاول فهمها من الداخل، بل ما زلنا نُحمّل مسؤولية ضعفنا التاريخي ووضعنا الراهن للأجنبي... الامبريالية ... الاستعمار .... الهيمنة ..." ، ويؤكد قائلاً: " صحيح هي مسائل مؤثرة ولكنها لا تبرر حالة الضعف التي هيمنت على عالمنا العربي والاسلامي ولا يزال"(المنصوري، 2007، ص21-23).

ويظهر المنصوري بعض اسباب ضعف الكتابة التاريخية عندنا وهي:

1- غياب النقد العلمي.

2- غياب المجلات التي تراجع الكتابات او تسمح بالمراجعات الجريئة.

3- أو تجاهل المؤرخ العربي لمؤرخ عربي آخر.

4- غياب الحريات في العالم العربي وهذا مما يساعد على الانكفاء والانكماش...

5- تحول بعض المؤرخين إلى كتّاب تاريخ رسمي، يكتبون بهدف كسب رضا السلطان.

6- تفسير التاريخ العربي الاسلامي تفسيراً دينياً، " وقراءتنا هذا التاريخ ليست قراءة تاريخية، وإنما هي قراءة إسلامية بحتة... وهذا يعني أننا ما زلنا لا ننظر إلى التاريخ على أساس العلم، وإنما على أساس العاطفة"(ص23-24).

7- كما ان الكتابة التاريخية في العالم العربي لا تزال تعاني من نقص الجرأة والنقد والابتكار، حيث تكرر المواضيع بعضها إلى مستوى الانتحال الموصوف.(ص 27)

ومن المفيد التوقف عند المفكر محمد أركون الذي وصف الفكر العربي – الاسلامي بقوله : " ما زالت هذه المجتمعات تقدم، حتى في أيامنا، جلّ السمات المميزة للمجتمعات الغابرة : زمنية دائرية، أنتظار مهدوي، آمال ألفية، محظورات تحمل على أعتبار كل جديد دنساً، ضيق الاطر الاجتماعية، الظاهر الكيفي للدراسات الاقتصادية، ولإدراك العلم، ولسيادة التخيل، والأسطورة، والرواية الشفهية، ورجحان الجماعة على الفرد."(اركون، 1985، ص54)

فكيف يستطيع بالتالي مؤرخنا العربي من ان يواجه عصر العولمة الذي يتميز بسرعة انتشار المعلومة، وقدرة الاعلام وتأثيره، وتحكم الغرب بالتكنولوجيا المتطورة، وقدرة المؤرخ والباحث الغربي على خوض غمار البحث التاريخي مدعوماً بما يلزم من قدرات مالية وتكنولوجية، وحريات واستقرار أمني وسياسي وأكثر من ذلك الاستقرار النفسي...

ت– دور الجامعات والمدارس

من ناحية أخرى، ما هو الدور الذي تؤديه المدارس والجامعات في تعليم مادة التاريخ؟

لو القينا نظرة على المنهاج التعليمي لمادة التاريخ في لبنان، في مراحل التعليم الأساسي من الرابع الأساسي إلى المرحلة الثانوية الثالثة ، لوجدنا أنه منهاج قديم لم يتم تطويره أو تعديله منذ عشرات السنين، وهو تلقيني بامتياز.

وإذا لاحظنا التلميذ اللبناني في عصر العولمة، لوجدناه مرتبطاً بجهازه الخليوي الذي يصله بالعالم، ويحمل فكراً وثقافة أميركية متحررة، وللاحظناه في حصص التاريخ، بشكل عام: مشاغباً، وفوضوياً ، لا يدرس ، أو يتذمر من النصوص الكبيرة المطلوب حفظها.

هنا يأتي دور الأهل الذين يطلبون من ولدهم التركيز على المواد العلمية ذات العلامات العالية، ويستخفّون أمام أولادهم من مادة التاريخ... حتى أن مدرّسي المواد العلمية عندما تتراجع علامات بعض تلامذتهم يعاتبونهم قائلين: وهل تريديون أن تتخرجوا من الجامعة بتخصص في التاريخ!!.

ولكتاب التاريخ في المدارس اللبنانية قصة أخرى، فهو :

1- ليس تاريخ لبنان كل لبنان.
2- تاريخ السلطان والحكم.

يضاف الى ما ورد أن تاريخ لبنان الحديث توقف وانتهى عند العام 1946، وهو تاريخ الجلاء العسكري عن لبنان من قبل فرنسا وبريطانيا.

كما أن آخر رئيس للجمهورية اللبنانية هو بشارة الخوري، وليس ميشال عون.

ففي كتاب التاريخ توقف منصب رئيس الجمهورية منذ العام 1946 وليس منذ 31 تشرين الثاني 2022 فلقد استبقنا الأحداث!!.

وإذا عدنا إلى السؤال من يعلم مادة التاريخ في مدارس لبنان؟

في التعليم الخاص قد يكون الناظر، أو مدرّسة الفنون، أو معلمة واحدة لمواد التاريخ والجغرافيا والتربية والفلسفة و ... مع وجود مدارس تكلف مدرساً مختصاً.

إلا أن مدرّس التاريخ نفسه، ماذا يفعل غير التلقين أين هي إبداعاته في نقل طرائق التعليم من " الجلاّدة " إلى عصر العولمة ؟.

أما في **الجامعة اللبنانية**، فمع وجود نخبة من أساتذة التاريخ، إلا أن قسم التاريخ بحاجة إلى تطوير من عدة نواح:

1- إدخال التكنولوجيا في التعليم.
2- التكثيف من النشاطات اللاصفية.
3- وضع المسابقات التاريخية المتطورة في الأسلوب والمنهج.
4- جعل علامة على البحث القيّم المشغول بدقة ومنهجية وليس المسحوب عن طريق شبكة الأنترنت.
5- إلزامية حضور الطالب عدد من الساعات التطبيقية ، اسبوعياً.
6- تطوير المادة وجعلها أكثر حياة وحيوية، بدلاً من النصوص الجامدة المطلوب صبّها في الكرّاس أثناء الامتحانات، وبالتالي فتح المجال أمام التحليل وإبداء الرأي الذي عليه العلامة الأعلى...

ث- الدين الاسلامي والحث على قراءة التاريخ:

حثَّ الدين الاسلامي على الاعتبار من الماضين، وهي دعوة لقراءة تاريخ الأمم السابقة والتعلم من اخطائهم والاعتبار منها، كي لا يتكرر نفس الخطأ، وقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم: " فأقصص القصص لعلّهم يتفكرون"(الاعراف 176).

-" لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب " (يوسف 111).

- " ولقد أنزلنا إليكم آيات مبيناتٍ ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم وموعظةً للمتقين " (النور 344).

- " نحنُ نقص عليك أحسن القصص بما اوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين"(يوسف 3).

وفي تفسير الآية الكريمة : فأقصص القصص لعلّهم يتفكرون" ، يقول الطبري: " فإنه يقول لنبيه محمد(ص): فأقصص، يا محمد، هذا القصص ، الذي اقتصصته عليك من نبأ الذي آتيناه آياتنا، واخبار الأمم التي أخبرتك أخبارهم في هذه السورة، نبأهم ونبأ اشباههم، وما حلّ بهم من عقوبتنا، ونزل بهم حين كذّبوا

رسلنا من نقمتنا على قومك من قريش، ومن قبلك من يهود بني إسرائيل، ليتفكروا في ذلك، فيعتبروا وينيبوا إلى طاعتنا"(الطبري، د.ت، ج3 سورة الاعراف).

إن معرفة التاريخ وأخذ العبرة منه من خلال الاطلاع على تجارب الماضين لتحاشي الوقوع فيها من جديد، والاستفادة من الايجابيات والسلبيات التي وقعت، حثَّ عليها القرآن الكريم من خلال الآيات التي اطلعنا عليها، وبالتالي حثّ القرآن الكريم على تحصيل هذه المعرفة، وهو واجب ، فهي :

1- عبرة لأولي الألباب.
2- موعظة للمتقين.
3- ليتفكروا.

وتأكيداً على أهمية تدَّبُر أحوال الماضين، ورد في الحديث عن الامام علي بن أبي طالب قوله :

" تدَّبروا أحوال الماضين من المؤمنين قبلكم، كيف كانوا في حال التمحيص والبلاء ... فانظروا كيف كانوا حيث كانت الأملاء مجتمعة، والأهواء مؤتلفة ... فانظروا إلى ما صاروا إليه في آخر أمورهم، حين وقعت الفُرقة، وتشتت ألأُلفة، واختلفت الكلمة، والأفئدة وتشعبوا مختلفين، وتفرقوا متحاربين، قد خلع الله عنهم لباس كرامته، وسلبهم غضارة نعمته، وبقي قصص أخبارهم فيكم عِبَراً للمعتبرين... فاعتبروا بحال ولد اسماعيل، وبني إسحق، وبني إسرائيل، عليهم السلام... تأملوا أمرهم في حال تشتتهم وتفرقهم ليالي كانت الأكاسرة والقياصرة أرباباً لهم..."(عبده، 1993، ص406-408).

ج- إرادة التغيير والحل:

أمام كل ما مرّ معنا من محن واحتلالات وحروب وأخيراً عولمة، على المؤرخ العربي أن ينهض من كبوته ليجاري سرعة العصر، و لا بُدّ له من أن يراعي النقاط الآتية:

1- الإبداع في مستوى الأفكار والمواضيع والأسلوب(لوغوف، 2007ص11).
2- الاهتمام بالشرائح الاجتماعية التي غيبها التاريخ، وهم الفقراء وعامة الناس(ص13).
3- إعادة إحياء شخصيات لعبت دوراً في التاريخ، وغيبت من قبل السلطان ومؤرخيه، وبالتالي إعادة رفعهم من غياهب التاريخ إلى المستوى الراقي الذي كانوا فيه فكرياً أو سياسياً، أو عسكرياً، أو اجتماعياً.
4- ربط الحدث التاريخي المزمع دراسته بالحاضر والمستقبل، وأخذ العبرة منه كي يشعر القارئ باللذة في الاطلاع عليه والاستفادة من أحداثه.
5- دراسة الحدث التاريخي من كل جوانبه، مثلاً: لا تكون دراسة لواقعة تاريخية عسكرية مثلاً، دون دراسة نتائجها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية...الخ.

6- أن يلجأ المؤرخ إلى باقي العلوم لفهم أو لتفسير حدث تاريخي، أو دراسة شخصية تاريخية، على سبيل المثال إذا أردت أن أكتب موقف أحد الفلاسفة أو سيرتهم، لا بُدَّ من أن اقرأ كل كتاباته واطلع على مواقفه من خلال عصره.

وهذا يشمل أيضاً إمكانية أن نوسع نطاق التاريخ ليشمل باقي العلوم (تاريخ الطب وتطوره ، تاريخ علم الفلك، تاريخ العلوم الكيمياء، تاريخ الفقراء ...الخ)(ص14).

7- على المؤرخ أن يعيش العصر الذي يؤرخه مادةً وروحاً، حتى يفهم الأسباب والنتائج، وإلا تكون دراسته مجرد سرد تاريخي.

8- على المؤرخ أن يتطور مع تطور التكنولوجيا في عصر العولمة ، فيستفيد من الشبكة العنكبوتية في دراساته وابحاثه، كما والاستعانة بوسائل الاعلام كالسينما أو التلفاز، فكم هي ناجحة المسلسلات التاريخية أو الأفلام التاريخية التي عرضت مؤخراً وحققت نجاحات كبيرة.

9- ويمكن للمؤرخ أن يتوسع في دراساته، فيكون هناك تاريخ للأسرة ، وتاريخ لتربية الأبناء، وتاريخ للعلاقات الزوجية، وتاريخ للحب ... كم أن هذا التاريخ سيجذب القراء...

10- ويتوسع المؤرخ ليصل حتى إلى لاعبي كرة القدم وباقي الألعاب الرياضية تاريخ لعبة كرة القدم، وتاريخ أبطال كرة القدم، كما وتاريخ الكومبيوتر، وتاريخ السينما... الخ.

11- وأيضاً يستطيع المؤرخ أن يصل إلى المؤمنين من كافة الأديان والطوائف، في تاريخ الصلاة والعبادات الأخرى والصوم والدُّعاء.

12- وأن يكون هناك تاريخ للفكر، كيف تطور فكر البشرية وأهم إبداعاته، وهذا لن يكون محصوراً في عصر واحد فله امتداداته التي لا نهاية لها.

بهذه الطريقة يقتحم المؤرخ كافة الاختصاصات والعلوم، ويكون في داخل كل المجتمعات ويتفاعل مع حركة الناس وتفكيرهم وميولهم، فيدرسها ويحلِّلها ليتحول بالتالي إلى باحث تاريخي – اجتماعي ، او تاريخي – فلسفي ، أو تاريخي – علمي ، أو تاريخي – أدبي ...

عندها ستصبح مادة التاريخ مادة حيوية لها عدة أبواب، من الملزم على كل إنسان أن يفتح أحد هذه الأبواب ليفهم أو ليستبين حقيقة ما، وليأخذ العبرة والحذر من باب آخر.

وهذا كله يتوقف عند:

تأمين قوت المؤرخ وعيشه بكرامة، فالجائع أو الذي يسعى إلى لملمة الساعات في الجامعة من هنا وهناك كي يكسب بعد عامين مبلغاً من المال يقيه مؤونة سنته، ويتعرض للكّش هنا والصفع من هناك والطعن من هنالك في كل عام، كونه أستاذاً متعاقداً بالساعة، إنّ هذا المؤرخ لن يجد الطمأنينة النفسية كي يبدع،

فهو يفكر فقط كيف وبأي طريقة يتفرغ في الجامعة، وإلى من يلجأ ليمنحه عطف ونعمة التفرغ ... فهذا الانسان كيف يمكن أن يُبدع في وطن مثقفيه إما في المهجر أو في سوق للعبيد؟!

المصادر والمراجع

المصادر العربية

– ابن تغري بردي ، حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ، تحقيق محمد كمال عز الدين ، بيروت : عالم الكتب ، ط1، 1990،

– ابن خلدون، المقدمة ، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، ط1، 2001 ،

– الجبرتي ، تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، بيروت: دار الجيل ، د.ت ،

– الطبري ، تفسير الطبري، القاهرة: دار المعارف

مراجع عربية

– أحمد سالم الأحمر، المثقف العربي واقعه ودوره ، مجلة دراسات عربية ، العدد 7، السنة 26 أيار 1990

– أحمد شامخ، المجددون في الاسلام ، مجلة الهلال، نوفمبر 2013 ،

– أحمد وجدي ، محنة النهضة ولغز التاريخ ، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 2005 ،

– اسحق عبيد، البعد التاريخي لأزمة الفكر العربي المعاصر ، المجلة العربية للعلوم الانسانية ، العدد 52، السنة 13 ، 1995،

– بشير الزهدي ، طريق الحرير وتدمر مدينة القوافل ، الحوليات الأثرية العربية السورية، ندوة دولية حول تدمر على طريق الحرير، المجلد 42، 1996 ،

– حسان الحلاق، العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، بيروت : دار النهضة العربية ، ط2، 2012 ،

– زين نور الدين زين، نشوء القومية العربية، بيروت: دار النهار ، 1968 ،

– ساطع الحصري، محاضرات في نشوء القومية ، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 1985،

– سامي أدهم ، العولمة والحقيقة كائنات النص الأعظم ، بيروت: المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق ، العدد 12 ، ت2، 1999،

– سعيد عبد الرحمن، الانتشار الفينيقي ، بيروت : دار العودة ، ط1، 2015 ،
– سعيد عبد الرحمن وطارق شمس، العولمة بين التاريخ والجغرافيا ، بيروت : دار العودة ، ط1، 2015 ،
– سعيد عبد الرحمن، النهضة العربية، ظروف النشأة – موقف رجالاتها – أسباب السقوط ، مجلة تاريخ العرب والعالم، العدد 270، تموز وآب 2014
– عبد المنعم الحفني ، الموسوعة الصوفية، القاهرة: مكتبة مدبولي، ط5، 2006،
– عبده قاسم عبده ، عصر سلاطين المماليك ، التاريخ السياسي والاجتماعي ، القاهرة: عين للدراسات ، ط1، 1998 ،
– عزبي محمد، تحديات العولمة وآثارها على العالم العربي، مجلة اقتصاديات شمال افريقيا ، العدد 6 ، (الجزائر).
– لطفي عبد الوهاب يحي ، دراسات في العصر الهلنستي ، بيروت: دار النهضة العربية ، د.ت
– مالك بن نبي ، وجهة العالم الاسلامي، بيروت: دار الفكر ، ط2،
– محمد أركون ، الفكر العربي، ترجمة عادل عوا، بيروت: 1985
– محمد عابد الجابري ، التراث والحداثة ، دراسات ومناقشات ، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ط4، 2011،
– محمد عابد الجابري ، حول الثقافة العربية ، مجلة المستقبل العربي، العدد 1، 1986 ،
– محمد عابد الجابري، المسألة الثقافية في الوطن العربي، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية ، ط3، 2006 ،
– محمد عبدالله الخالدي النقشبندي، البهجة السنية في آداب الطريقة العلية الخالدية النقشبندية ، طبعة بالأوفست ، استانبول ، مكتبة الحقيقة ، 2002،
– محمد عبده ، الأعمال الكاملة ، القاهرة : دار الشروق ، ط1، 1993 ،
– الشيخ محمد عبده ، نهج البلاغة، الخطبة 192، بيروت : مؤسسة الأعلمي، ط1، 1993 ،
– محمد عمارة، العروبة في العصر الحديث ، مصر : دار الوحدة ، ط3، 1981،
– محمد عمارة ، الأفغاني مفكراً ومناضلاً ، مجلة تاريخ العرب والعالم العدد 26، آذار ونيسان 2013 ،
– محمد الطاهر المنصوري، مقدمة كتاب جاك لوغوف، التاريخ الجديد، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 2007،
– نقولا زيادة، دراسات في التاريخ ، بيروت : الأهلية للنشر والتوزيع ، 2002 ،
– يوسف زيدان، الطريق الصوفي وفروع القادرية ، بيروت: دار الجيل، ط1، 1991،

– يوسف عيد ، الفنون الأندلسية وأثرها في اوروبا القروسطية، بيروت : دار الفكر اللبناني ، ط1، 1993 ،

مراجع مترجمة

- جاك لوغوف، التاريخ الجديد، ترجمة محمد المنصوري، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية،ط1، 2007.

- زيغريد هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي ، بيروت: دار صادر ، د.ت،
- سبنسر ترمنجهام ، الطرق الصوفية في الاسلام ، بيروت: دار النهضة العربية ، ط1، 1997
- فؤاد كوبريلي ، المتصوفة الأولون في الأدب التركي ، القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ط1، 2002 ،
- وروريك موراي، جغرافيات العولمة، ترجمة سعيد نتاف ، مجلة عالم المعرفة، العدد 39
- ول ديورانت ، قصة الحضارة ، بيروت: دار الفكر ، د.ت

صحف

- جريدة السفير، 4/30/